

ازدواجية اللغة والثقافة في روايات آسيا جبار قراءة في كتاب - الأصوات التي تأسرني -

أ. خديجة حامي

جامعة تيزي وزو

«J'ai utilisé jusque là la langue française comme voile, voile sur ma personne individuelle, voile sur mon corps de femme. Je pourrais presque dire voile sur ma propre voix.» Assia Djebar: *Ces voix qui m'assiègent*.

Ed /Albin Michel. Paris, 1999, p43

ملخص المداخلة:

تفتح مدونة آسيا جبار الأدبية المجال للتساؤل فيم إذا كان بمقدور الكاتبة، بنتاجها الغزير، التعبير عن تجارب الذات وتصدّعات الذاكرة وأزمات الهوية بلغة الأخرى؟ وهل استطاعت أن تتحرر من قيود ثقافة مجتمع قاهر للمرأة عن طريق التحرر من لغته؟ وهل تعتبر الكتابة باللغة الفرنسية عند "جبار" هروبا من واقع راسخ لا يمكن التغيير فيه، سوى بالبحث عن بديل، لم تجد له الروائية من سبيل إلا في اللغة؟ ذلكم ما تسعى هذه المداخلة للإجابة عنه.

تُطرح إشكالية العلاقة بين اللغة والثقافة عند "آسيا جبار" بشكل كبير ومعقد؛ فالكتابة باللغة الفرنسية، تشكل بُعداً إيحائياً استفزازياً لمشروع آسيا جبار؛ حيث يتعلق الأمر هنا بالكتابة بلغة الآخر (المستعمر) في حقل معرفي يكتسب شرعيته العلمية، ومصادقيته التاريخية من مرجعيته العربية.

ولأن تجربة الاستعمار لا تقتصر على العنف الفيزيائي بل تمتد أيضا إلى العنف الثقافي واللساني والنفسي، فإن تجربة التحرر من الاستعمار على صعيد الكتابة ظاهرة لا تخلو من العنف في جوهرها، وهذا ما يضع النتاج الثقافي ما بعد الكولونيالي Post-Colonial في حالة تعارض مع الذات، وفي سياق من الاغتراب والاقتلاع وآلام البحث عن الهوية بعيدا عن الشروط الصحية للتفاعل الدينامي والتثاقف الطبيعي الحر، وإذ يبحث الكاتب ما بعد الكولونيالي عن الاستراتيجيات التي تتيح له بلوغ صيغة تصالحية بين قيود الإرث الاستعماري وضرورات كتابة الذات، فإن ذلك البحث قد يأخذ أشكالا عنيفة حين تضطر الذات إلى كتابة نفسها بلغة المستعمر.

وإذا كان هذا هو حال الكاتب الرجل، فإن تجربة الكاتبة المرأة تكتسي طابعا أكثر حدة وازدواجًا. إنها تشترك معه في الخضوع لأواليات الاستعمار في القهر والقمع والإلغاء والتدجين، ولكنها تزيد عليه في خضوعها لقهر آخر يتصل بطبيعة موقعها في المجتمع المحلي قبل مجيء الاستعمار وأثناءه وبعد التحرر منه، وابن البلد في عين المستعمر هو "الآخر" المعمم، امرأة كان أم رجلا، أما المرأة فهي "آخر الآخر" في عين ابن البلد وأعراف الهيمنة البطريركية.

ولأن "آسيا جبار" تستخدم لغة المستعمر لكي تسجل وحشيته وبعض الذاكرة الدموية التي خلفها، فإن كتابتها بتلك اللغة تأخذ صفة الإشكالية المفتوحة. حيث تضع الكاتبة نفسها في موقع ابنة البلد التي يجب أن تتوافق مع تاريخ بلدها الجزائر ومع نفسها كذاتٍ بربرية وعربية مؤنثة تكتب باللغة الفرنسية عن النساء العربيات اللواتي لا يتكلمن الفرنسية، وعن رجال عرب حجبوا عن النساء حق الكلام بالأصالة عن أنفسهن؛ حيث تقول جبار: "حين أكتب وأقرأ بلغة أجنبية، فإن جسدي يسافر إلى فضاء تدميري، الكلمات التي

أستخدمها لا تعكس واقعاً من لحم ودم، وجميع ما تعلمته في القراءة والكتابة يقذف بي نحو موقع ثنائي الانقسام. وضربة الحظ هذه تضعني عند حافة الانهيار¹. هذه الثنائية في استخدام اللغة، أو هذا التعارض بين الانتماء والاقتلاع وبين الذات والآخر، يختزل الكاتبة إلى كائن يرتكز تشكيل هويته على حقلين لغويين وثقافيين منفصلين، يتكاملان في ترسيخ الثنائية وتجريد الهوية من سياقاتها التاريخية والاجتماعية والثقافية والسيكولوجية. ذلك لأن استخدام اللغة العربية يرتبط على نحو وثيق بتشكيل الهوية، ويلعب دور «البرهة التطهيرية المطلقة»، على حدّ تعبير آسيا جبار، الأمر الذي يصطدم على نحو حاد بالاستخدام القسري للغة الفرنسية التي تحرّر وتأسر في آن معاً.

هذا ما يدعونا لتساءل: ماذا تعني الكتابة بالنسبة لآسيا جبار؟ ولما الكتابة باللغة الفرنسية؟ وإلى أي مدى كان في مقدور "آسيا جبار" - بنتاجها الغزير- التعبير عن تجارب الذات وتصدّعات الذاكرة وأزمات الهوية بلغة الآخر؟ وهل استطاعت أن تتحرر من قيود ثقافة مجتمع قاهر للمرأة عن طريق التحرر من لغته؟

إن هذه الأسئلة تجد الإجابة عنها في كتاب "تلك الأصوات التي تحاصرني" لآسيا جبار، فهي تعتبر الكتابة مقاومة للصمت والسكوت، وبالمقابل تعترف آسيا جبار أن مشكلة الكتابة تتمثل في أنها كلام صامت ومع ذلك فهي في وضعية تسمح بتمديد جسد مرئي، يمثل من جهة النص المكتوب ومن جهة أخرى جسد المرأة. الكتابة هي فعل إحياء ينصب على إحياء اللغة الفرنسية / لغة المستعمر الذي يرمز إلى ما هو مظلم، وما هو مدفون، الكتابة تجسد نقلة من الظلام إلى النور تقول آسيا جبار: "كذلك فإن الكتابة الحقيقية والمؤنثة في بلد مسلم لا يمكنها أن تتعمق ولا أن تتطور إلا انطلاقاً من جسد المرأة المحرر- أو الذي هو في طور التحرر-"². لقد تمكنت آسيا جبار بفضل

كتاباتهما من تحرير جسدها، متمكنة من التنقل والسفر عبر بلدان العالم وبين القارات.

لقد مرت الكتابة مع آسيا جبار -حسب محمد حيرش بغداد- عبر ثلاث مراحل أساسية³:

1. مرحلة ما قبل 1968، وهي مرحلة الشباب.
2. مرحلة 1968 إلى 1978، وهي مرحلة حرجة توقفت فيها عن الكتابة، وانصرفت إلى ميادين أخرى كال مسرح والسينما، والتحقيقات الميدانية؛ حيث كانت قريبة جدا من موطنها الأصلي، تحاول بقدر الإمكان أن تتشبع باللغة الأم، كل هذا من أجل تقوية شخصيتها الثقافية وتبتعد قليلا عن اللغة الفرنسية.

3. مرحلة ما بعد 1978، وتأتي فيها الكتابة الناضجة، وهي مرحلة حاسمة لأنها تقرر أن اللغة الفرنسية ستكون اللغة التي ستكتب بها، فهي تعود إليها ولكن بشخصية ثقافية أصيلة وقوية، لتصبح اللغة الفرنسية مجرد وسيلة تصب فيها حمولة هويتها الشخصية، العودة هذه تصفها آسيا جبار بأنها عودة حرة، على خلاف مرحلة ما قبل 1968، حيث كانت تكتب بلغة مفروضة عليها في جزائر كانت ما تزال محتلة أين تلقت تعليمها باللغة الفرنسية.

تعلل آسيا جبار انحيازها للكتابة باللغة الفرنسية؛ بأن الأصل العربي والإسلامي لا يمكن أن يوفر لها مقاما دائما؛ لأنها تعتقد أن الإسلام يعتبر المرأة عابرة سبيل، لا يجب ولا يحق لها أن تطالب بمقام دائم؛ حيث تقول: "في دين يبدأ بهجرة مقدسة كلية، فإن المرأة تتحول إلى مهاجرة على الدوام، بدون نقطة وصول، ومن أجل هذا فهي مخلوق جدير في نفس الوقت بالأحسن وبالأسوأ، رمزيا الأحسن وتاريخيا الأسوأ"⁴. إن اللغة الفرنسية باعتبارها لغة خارج الإسلام، يمكنها أن تتكلم بأكثر حيوية عن ظواهر الإسلام وأحداثه مما لو استخدمنا

اللغة العربية التي لا يمكنها أن تخون الإسلام للصلة الموجودة بينهما. إن التقاليد الإسلامية مترسخة في اللغة العربية، مما يجعل مستعملها يشعر بالمسؤولية تجاه ما يكتبه عن الإسلام. تقول آسيا: "بديهي أنه بالنسبة لـ "بعيدا عن المدينة المنورة" أنني تمكنت من إعطاء حركية لنساء يعشن في فجر الذاكرة الإسلامية، لأنه بفعل اللغة/ اللغة الخارجة عن الإسلام الآن، لغة محايدة منحتهم حركيتها وحريتها، وهي وسيلة العجلة الخيالية/ Fictionnelle التي تدور بلا توقف بداخلي..."⁵ فإذا كان الإسلام يدعو إلى أن تتحجب المرأة، فإن اللغة الفرنسية - بمفهوم آسيا - تعمل على منح الحرية للمرأة؛ أي إلى نزع الحجاب.

لقد حدث اللقاء بين آسيا جبار واللغة الفرنسية منذ الطفولة، وهي لغة الآخر التي منحها إياها الأب، إن لغة الآخر هي بالنسبة لآسيا جبار لغة الأب، فرصة تأتي لتضعها أمام نداء إثبات الذات، وشق الطريق نحو أفق واسع. لقد كان والد آسيا جبار يحترم الفرنسية أكثر من الفرنسيين أنفسهم، لهذا تعتبرها لغة الأب. وفي مقابل هذه اللغة، ثمة لغة أخرى هي لغة الأم، اللغة المنهزمة التي لا تزال تعيش انكساراتها في صمت، اللغة الأصلية التي تهيمن عليها أنا مركزية مجهولة الهوية، غير محددة المعالم، أنا تقليدية تنكر عليها أحقية ممارسة الكتابة، لأنها لا ترى فيها -أي الكتابة- سوى ممارسة ذكورية خاصة بالفحولة. فبين لغة أصلية جريئة تتخبط بين أزقة الذاكرة، وبين لغة متوهجة بما تحمله من إرث معرّي حي ستختار آسيا جبار اللغة الفرنسية: "أنا كتابة امرأة وليس لدي سوى كتابة واحدة؛ أي كتابة فرنسية. فأنا أقدم نفسي دائما لأول وهلة ككاتبة، كروائية لا تحمل إلا لغة واحدة هي اللغة الفرنسية"⁶. تكتب آسيا جبار لغة غير لغتها، وتجد نفسها بداخلها. والكتابة ليست -طبعاً- بالنسبة لها مجرد هواية، بقدر ما هي سعي نحو الانعتاق من الأصوات التي تحاصرها، أصوات أبناء بلدها. إن الآخر يمثل بالنسبة لآسيا جبار

فرصة لبلوغ الحلم والأمل؛ فعندما منحها الآخر لغته، تمكنت بذلك من تحويلها إلى حجاب تتوارى من خلاله عن أعين أولئك الذين يعانون نكسة فكرية رهيبة، إنها لغة الآخر الذي يعدها بالاحترام والتقدير، وهذا ما تؤكد عليه حينما تشير بأنها صارت محترمة من قبل مجتمعها حينما كتبت داخل اللغة الفرنسية.

آسيا جبار بين حجاب اللغة وحجاب الاسم المستعار / *Le pseudonyme*:

إذا كانت الكتابة تنزع الحجاب عن المرأة وتحررها، فإن الاسم المستعار يضع على المرأة حجاباً جديداً، ويقيّد حريتها في الكتابة (آسيا جبار هو اسم مستعار، والاسم الحقيقي هو فاطمة الزهرة إمالاين)، في مجتمع مليء بمظاهر العنف والعدوان، لا يمكن للمرأة أن تعرض نفسها للخطر بأن تكتب باسمها الحقيقي، ولو فعلت ذلك لنزعت عن نفسها كل وقاية وحماية. والشئ نفسه يحصل لو كتبت باللغة العربية التي هي لغة ميسورة لدى الجماعات المتطرفة على عكس اللغة الفرنسية. يقول فليب لوجون / *Philippe Le jeune*: "الاسم المستعار هو اسم مختلف عن اسم الحالة المدنية (...) وهو لا يغير شيئاً في الهوية"⁷، ولكنه بالنسبة للمرأة يطرح صعوبات كثيرة؛ فهو يجعل المرأة الكاتبة تعيش عالماً خيالياً، لأنها ستعمل على ألا تقحم هويتها الحقيقية في فعل الإبداع. إن الأعمال المرتبطة بالعلم والواقع لا يلجأ فيها كتابها إلى الأسماء المستعارة، فهذا يبقى ميزة الأعمال التخيلية والإبداعية خاصة الروايات، وبالنسبة لـ "نجيبة رقايق"، فإن الاسم المستعار يدخل هوية المرأة/الكاتبة في عالم من التخيل، حيث تشبه الباحثة الاسم المستعار بمجموعة الأكسيسوارات التي تغير هوية الشخص إلى ممثل مسرحي، فتدخله عالماً مغايراً. فهذه اللعبة التي تجعل كل امرأة تدخل عالم الكتابة تحت اسم مستعار، مجرد تخيل *fiction*⁸. ويربط "جرار جينات" الاسم المستعار بمعاني الابتكار (*invention*) والمسح اللفظي

(*métamorphose verbale*) والاقتراض (*emprunt*) وفتشية التسميات (*fétichisme onomastique*)، وعليه فإن المبدع يجد لذة في استعمال الاسم المستعار. كما يعتبر "جينات"، أن للاسم المستعار وظيفة شعرية، ويربطه بقدرة الكاتب الإبداعية، فالكاتب الذي يملك القدرة على تغيير اسمه، يملك، لا محال، القدرة على الكتابة⁹. مما يعني أن توظيف الاسم المستعار يعتبر أول خطوة يخطوها الكاتب نحو التخيل.

إن الكتابة التخيلية الإبداعية تركز على مبدأ الاستعارة وتغيير المعنى الأصلي للكلمات، فكذلك الأسماء المستعارة تتطلب مجهودا من أصحابها حتى يبرعوا في اختيارها؛ لتصبح السيرة الذاتية مع هذه الأسماء صعبة، بل ومستحيلة في نظر نجبية رقايق، لأن من يضطر إلى إخفاء اسمه لن يغامر ويكشف عن مسيرة حياته بلغة صادقة وحقيقية. لقد حاولت آسيا جبار أن تروي مسيرة حياتها في رواية "Ombre sultane" على الرغم من كونها رواية خيالية، ولكنها في النهاية تراجعت ووجدت نفسها تتكلم بلغة "نحن النساء" فأصبح الأمر لا يتعلق بمصير امرأة واحدة بل بتاريخ النساء ككل.

كغيرها من الكاتبات الأخريات، فإن آسيا جبار تطمح إلى الحرية والانطلاق، ويظهر هذا جليا في روايتها "بعيدا عن المدينة" (بنات إسماعيل)، وعنوان الكتاب يدل على أن الحرية لا تنال إلا بالابتعاد عن المدينة التي تمثل مركزا إسلاميا يحوي على الأسباب الحقيقية لظلم المرأة؛ فالبعد عن المدينة المنورة يعني تحديا للقيم وابتعادا عن الأصول الأولى، وهو ما نجده يتجسد أيضا في ابتعاد الكاتبة عن اسمها الأصلي والحقيقي الذي يكبح حريتها في الكتابة والبوح، وفي ابتعادها عن لغة الدين والأجداد التي هي رمز من رموز سجن وتبعية المرأة العربية المسلمة.

تحرر آسيا جبار مزدوج، يعود الفضل فيه للغة الفرنسية وللإسم المستعار، رسمت بهما لنفسها استراتيجية شقت أمامها طريقا يمكنها من الانفلات من أنا مهيمنة. ولكن ما الذي يحدث وما الذي يتبقى حينما نكتب داخل لغة الآخر ونتخلّى عن لغتنا المحلية؟ ما الذي سيكون عليه الأمر لحظة امتلاكنا للغة واحدة هي ليست لغتنا؟ هل سنكون أمام فقد للغة الأصلية لحظة الكتابة داخل لغة الآخر هي نفسها تمثل فقدًا آخر؟ إننا أمام فقد مضاعف، إن آسيا جبار تجد نفسها في وضعية جد حرجية حيث يختلط عليها الأمر، حتى وإن وجدناها تتبنى لغة الآخر التي تكتب داخلها، إلا أنها تؤكد بأن اللغة الفرنسية تشكل خطرا عليها، وفي الوقت ذاته نلمس لديها نوعا من الحميمية للعودة إلى الكتابة باللغة الأصلية على الرغم من عدم التواصل معها، فعلاقتها بها ما تزال متوترة توترا لا يخلو من الشعرية: "تربيت في بيئة مسلمة، كما كان عليه أجدادي منذ أجيال بعيدة، وقد تأثرت بهذه البيئة عاطفيا وروحيا. ولكنني أعترف اليوم أنني أجد نفسي في مواجهة معها، بسبب كل تلك المحرمات التي لم أتخلص منها تماما. ولذا فأنا أكتب باللغة الفرنسية، لغة المستعمر التي أصبحت ومازالت اللغة التي أفكر بها، رغم أنني لا أزال أحب وأتعذب وأصلي (عندما أصلي أحيانا) باللغة العربية، لغتي الأم. كما أنني أؤمن أن لغتي الأصلية، هي لغة كل المغرب العربي، وأنا أعني هنا اللغة البربرية."¹⁰

حجاب صمت أم بحث عن الهوية: إن أي حديث عن هوية جزائرية بعيدا عن التعدد اللغوي هو حديث لا طائل منه؛ فالفرد الجزائري إلى يومنا هذا لم يمتلك بعد لغة واضحة تمكنه من التفكير والإبداع ضمنها، أو على الأقل لغة تمكنه من التواصل العادي والتبادل اللغوي السليم، وفي ظل هذا الغياب المطلق لمؤسسات مختصة تهتم بحل هذا المأساة، فسيكون الضياع حليفنا. إن المجتمع

الجزائري مرهون تاريخيا بثلاث لغات كما تحصيها آسيا جبار، وإنه بعيدا عن هذه اللغات يستحيل حل إشكال الهوية الوطنية.

اللغة الأولى: تلك التي تعود أصولها إلى الفترة البربرية، لغة قديمة، لغة يوغرطة، ذات أصول ليبية، وهي عموما لغة متمردة ومتوحشة ليست لها قواعد واضحة.

اللغة الثانية: هي لغة الكتابة، لغة الكتاب المقدس والصلوات الخمس، لغة الرسول محمد في كهفه، يرى ويسمع جبريل، إنها اللغة العربية، أخت الدارجة.

اللغة الثالثة: وهي لغة سادة الأمس، والذين غادروا الوطن بعد أن مكثوا فيه لمدة طويلة، رحلوا وتركوا آثارهم في هذه الديار، لنقل إنها لغة فرانك¹¹.

والإقرار بالهوية الجزائرية لن يتم إلا بالاعتراف بهذا التمازج والتناغم اللغويين الذي يتم بصيغة تلقائية ومرنة بين أفراد المجتمع الجزائري؛ فهذا الاختلاف هو ما يؤسس الهوية الجزائرية. إضافة إلى هذا الثالوث اللغوي، تشير آسيا جبار إلى لغة رابعة هي لغة الجسد التي تطلق عليها تسمية "اللغة الراقصة"، وهي تعتقد أنها اللغة التي باستطاعتها أن ترسم ملامح هوية هذا البلد؛ فلغة الجسد تعتبر أنها نقطة التقاء اللغات الثلاث الأخرى، وهذا التلاقي هو ما يصنع الذات الجزائرية؛ فلغة الجسد -بمنظورها- هي هوية هذا الوطن.

آسيا جبار لا تقدم نفسها باعتبارها كاتبة بلغة معينة، اللغة في بعدها الهوياتي المدافع عنها في إطار الشعارات المتكررة والقومية المزيّفة. إن هوية آسيا جبار هي اللاهوية، أنها الكتابة الممارسة داخل لغة اختارتها لأنها رأت فيها نموذج الاحتجاب الذي يمكنها من الانفلات من أعين الرقباء: "أنا امرأة كتابة، وأود أن أضيف بنبرة من الجدية والحب؛ لا أملك سوى كتابة واحدة، هي كتابة اللغة الفرنسية، التي أخط بها كل صفحة من كل كتاب ..."¹².

إن اللغة الفرنسية بالنسبة لآسيا جبار هي لغة العبور والاختراق passage et transgression، ولم تكن مجرد لغة للكتابة والتواصل؛ وإنما هي الوسيلة القادرة على أن تكشف وبصورة عميقة معاناة الكاتبة؛ فآسيا جبار تفضل دون شك الكتابة باللغة الأصلية، لغة الآباء والأجداد، ولكن في هذه اللغة يطفو دائماً التعدد اللغوي الذي يحدد هوية هذا الوطن، مما يصعب المهمة. إن قرار آسيا جبار لم تجد له بديلاً، كان لا بد أن تفر إلى لغة غير لغتها الأم، اللغة الأصلية. ولكن هل هناك فعلاً لغة أصلية؟ هذا ما ينكره تماماً عبد القادر بودومة ويعتبر أن "وهم الأصل هو ما يورط الكاتب في مأزق الإيمان بقداصة اللغة، كل قول بلغة أصلية، لغة محضة، هو قول يحمل زيفه، ففي البدء لم يكن بدء وإنما كان اللابدء"¹³. إن قرار آسيا جبار هو نوع من التخفي، خفاء الصوت، وذلك عبر تفضيلها الحفاظ على نفسها مرتدية حجاب الغة، وإن كانت بلا مقاومة من نوع آخر فقد احتفضت لنفسها ما يجعلها أكثر قوة، وذلك عبر حفاضها على الحجاب الذي من خلاله تحدث لها المواراة القصصية منفلته من مركزية لم تكن يوماً مؤسسة فكرياً أو منطقياً، بقدر ما كانت مجرد وهم تكس عبر الزمن. هذه هي، إذن، حقيقة الحجاب الذي تتخذ منه آسيا جبار عنصر الاختفاء والتواري مفضلة الحجب والتستر دون سلطة ولا مركز. الكتابة هي حجاب الصمت، "أكتب لكي لا أصمت، فأنا أكتب هذا يعني أن نكتب نصاً يصير أدباً، إننا في أول الأمر لا نكتب أدباً ولا فلسفة، إننا لا نكتب شيئاً، إننا نكتب فقط الكتابة، الهوية ليست مجرد ورق ولا مجرد عرق ولا حتى مجرد دم، وإنما الهوية هي قبل كل شيء الكتابة، وإذا كنا في الغالب نجعل الكتابة للتواصل، فإن آسيا جبار جعلت منها أداة للتحويل transformation. الحجاب الذي نتحدث عنه من هوية الكتابة وليس من هوية اللغة، ذلك لأن كل وحجابه، ومنه كان لكل واحد منا كتابته، لذا تسبق الكتابة عندنا اللغة، إنها تقيم حيث الكتابة معبر عنها في الصوت الممتنع عنه أحقيقته في التعبير عن

كيانه، ثم تحضر اللغة ك لحظة للتواري والتستر، وهذه اللحظة تجسدها حسب آسيا جبار اللغة الفرنسية. ويبدو أن لفظ الحجب voilé مرتبط عليه بلفظ اللـا حجب dé-voilé وهنا تكمن الحقيقة الضائعة، والتي معها تبرز الكتابة الجبارية ك لحظة محاولة بعثها من جديد¹⁴.

يصبح حجاب اللغة ملاذا ليس له من بديل في وطن تعاني فيه الأنا بؤسا داخل لغتها؛ إذ كيف يعقل أن تتمكن آسيا جبار من الكتابة داخل مجتمع يمنع عنها هذا الحق بامتياز، ويريدها أن تصمت؟ إنه حينما تعلن المرأة الجزائرية، عن بدء مباشرتها تجربة الكتابة، تكون معرضة للإقصاء من قبل مجتمعها. نحن نعلم أن العديد من النساء يكتبن داخل اللغة الفرنسية، لأنها منحتهن فرصة التحرر، تحرير أجسادهن؛ أي أن يحتجن، وعندما تريد المرأة الجزائرية التعبير عن طريق الكتابة؛ فكأنها تريد القيام بتحدي هذا الإقصاء، ففي الواقع المجتمع يريد الصمت؛ أي إنه يريد لها أن تصمت.

وعلى كل، فإن الكتابة والتعبير باللغة الفرنسية من طرف كاتبة جزائرية وعن مجتمع جزائري، قد لا يكون الحل الأمثل لمعضلة المرأة المسلمة حقوقها؛ فالانحناء أمام الإقصاء لن يوقفه، وإنما يزيل عنه الحواجز فحسب. وهذا ما تعبر عنه الكاتبة نفسها من خلال ما يعنيه عنوان كتاب، بياض الجزائر/Le blanc de l'algerie. تجيب آسيا جبار عن هذا التساؤل قائلة: البياض يعني "بياض الغبار، النور بلا شمس، تخفيف / Dillution...¹⁵ لكن هذه الإجابة تبقى غامضة، وهذا ما يجعلها تستعير عبارة لـ: Kandinsky تقول بأن البياض على أرواحنا له تأثير الصمت المطلق، وهنا نفهم بأن البياض مرتبط بالدرجة الأولى بالصمت، والصمت مرتبط بعدم الكتابة؛ فالجزائر صفحة بيضاء من الكتابة رغم ما تعرفه من آلام وأحزان، وليس هناك إلا شكل واحد من أشكال الكتابة، هي الكتابة بالدم، تقول آسيا جبار: "بياض الكتابة في جزائر غير مترجمة؟ الآن جزائر الألم بدون كتابة، الآن جزائر كتابة الدم، يا

للحسرة!¹⁶. تتحدث آسيا جبار عن جزائر بدون كتابة رغم أننا ندرك تماما أنها تكتب باللغة الفرنسية منذ الستينيات عن آلام وأحزان الجزائر، بالإضافة إلى غيرها من الكتاب الجزائريين الفرنكوفونيين، إلا أن هذه الكتب التي تعالج مأساة وآلام الجزائر باللغة الفرنسية لا تترجم إلى اللغة العربية إلا قليلا، مما يعني أن الكتابة باللغة الفرنسية رغم كثرتها وأهميتها، فهي لا تؤثر على البياض، وهي في نهاية المطاف شكل من أشكال الصمت.

الهوامش:

- 1 - Djebbar Assia, ces voix qui m'assièges, Albin Michel, 1999, p26.
- 2- Ibid, p28.
- 3- محمد حيرش بغداد، الكتابة النسوية وهاجس التحرر من سلطة الماضي ومن سلطة الرجل - آسيا جبار-، عن أشغال الملتقى الدولي حول الكتابة النسوية: التلقي، الخطاب، والتمثيلات، أيام 18 و 19 نوفمبر 2006، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، 2010.
- 4 - Djebbar Assia, ces voix qui m'assiègent, p 49.
- 5 - Ibid, p 52.
- 6- Ibid, p 47.
- 7- فليب لوجون، السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم: عمر حلي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص 35-36.
- 8 - Voir : Najiba Regaieg, De l'autobiographie à la fiction ou le JE(U) de l'écriture dans l'œuvre d'Assia Djebbar, Med Ali Edition, 1er tirage, Sfax, 2004, p 31.
- 9 - Voir : Gérard GENETTE, Seuils, Ed de Seuil, Paris, février, 1987, pp 52-53.
- 10 - Djebbar Assia, ces voix qui m'assiègent, p 52.
- 11 - Ibid, pp 54-56.
- 12- Armelle Datin et Isabelle Collombat, Assia Djebbar : la réfugiée linguistique, Nuit blanche, le magazine du livre, n° 92, 2003, p 21.
- 13- عبد القادر بودومة، تفكيك حجاب اللغة، مقاربة فينومينولوجية لنص آسيا جبار: الأصوات التي تأسرنني، أعمال الملتقى الدولي: الكتابة النسوية، التلقي، التمثيلات والخطاب، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، أيام 18-19 نوفمبر 2006. ص123.
- 14- م ن، ص 124.
- 15 - Djebbar Assia, Le blanc de l'Algerie (Recit), Albin Michel, 1995, p 221.
- 16 - Ibid, p 235.